البابليون مهرة ورجال أعمال

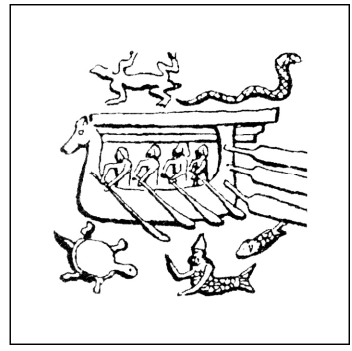

أكثرت تجارك أكثر
من نجوم السماء

سفر النبي ناحوم[أ] ٣: ١٦

اشتهرت بابل ليس فقط بثمار الأرض ولم تكن الشهرة التي شكلتها صناعتها وتجارتها أقل من ذلك وفي بابل خفق نبض الحياة الاقتصادية لآسيا الدنيا. وكانت البضائع البابلية فريدة من نوعها من حيث الجودة والمودة في كل العالم القديم. وبهذا مَنَّ عليهم «البابليين» إلى حد ما الموقع الجغرافي والظروف الطبيعية ولكن بشكل أساسي محبة أهلها للعمل والفن. وأرض بابل المكّونة من الرواسب النهرية المحمولة لم يكن عندها أبداً أي مكامن للحجارة والمعادن. وهذا يعني تلك الأنواع من الخامات التي لعبت الدور الحاسم في المراحل المبكرة للحضارة. ولم يكن في بابل الأشجار الصالحة للبناء التي يمكن أن تؤمن بها أعمالها الخشبية.

وحصل البابليون على الحجارة والمعادن والأخشاب من الدول المجاورة عن طريق التجارة أو حملات النهب، وعرف البابليون باطن الأرض الغني بشكل أسطوري بالنفط وكلمتنا الحالية «نفط» أليست من قبيل المصادفة إنها الكلمة البابلية «نابتو - Naptu» واستخدموا خامات النفط لتعبئة القناديل، أما الإسفلت والقير بمثابة

أ- ناحوم = اسم عبري معناه مُعَزٍّ هو أحد الأنبياء الاثني عشر الصغار من القوش وهي على الأغلب قرية في فلسطين «مكانها الحالي مجهول» تحدث عن دمار طيبة في مصر عام ٦٦٣ ق.م وسقوط نينوى عام ٦١٢ق.م ويعتقد أنه كان ممن سبوا إلى بابل. -المترجم-

obeikandi.com

ملاط للبناء بالآجر ولتشحيم المصنوعات المختلفة التي من الضروري إكسابها صموداً للماء، وبقيت الخواص الأخرى للنفط غير معروفة لدى القدماء.

ولعب الطين «الصلصال» والقصب وكذلك الصوف والجلود والكتان وألياف النخيل والأنواع الأخرى من الخامات الزراعية الوفيرة في البلاد الدور الأساسي في الحياة الاقتصادية، وهذه الثروة بالاقتران مع التطور الباكر جداً للتجارة الخارجية أصبحت الأساس الذي نمت عليه الشهرة الصناعية والتجارية البابلية التي بلغت الجوزاء في عهد البابلة.

وفقد الحجر حتى هذا التاريخ أهميته القديمة كواحد من المواد الأساسية لصناعة أدوات العمل، وحل المعدن محله ولكنهم استمروا يصنعون من الحجر أصنام الآلهة والتماثيل الملكية والمراقم[أ] للكتابات الرسمية المهمة للغاية وآنية العبادة والزينة الثمينة والأختام الأسطوانية والجواهر. «من الحجارة الكريمة» واستخدموه أيضاً لأغراض البناء التي يستعمل فيها الأليباستر والحجر الكلسي والديوريت والبازلت وكذلك الأحجار الثمينة وشبه الثمينة كالزمرد والأونيكس والياقوت الأحمر واليشب وبخاصة اللازورد الذي يجلب من جبال البامير.

والخشب كالحجر كان غالياً ونادراً وأنواع الخشب المحلية هي جذوع النخيل والأثل «الطرفاء» والجميز «القيقب»[ب] والصفصاف وغيره التي تذهب للمصنوعات الحياتية الدقيقة ولكنها لا تصلح إلا قليلاً لصنع الأشياء الأكثر قيمة حيث استخدموا للأخيرة جذوع الأرز والسرو والبلوط والزان... الخ المستوردة.

واستحق صانعو الأثاث البابليون الشهرة عن جدارة على الشعوب المجاورة. وصنعوا اللوازم الخفيفة المجدولة من أغصان الصفصاف والقصب وكذلك المفروشات الثمينة المصقولة والمطعمة بالذهب والفضة وعاج الفيل والأحجار الكريمة والأعمال المنفذة بطريقة الموزاييك «الفسيفساء» والمضاجع الأكادية والأسفاط «الإحقاق» والخزائن والصناديق والطاولات والكراسي ومساند الأرجل «الدكك» والمركبات وغيرها من أمتعة الأشغال البابلية ثمنت عالياً في الشرق القديم.

واستخدم القصب وأغصان وألياف النخيل كمواد للمصنوعات المجدولة المختلفة الأنواع جداً كالحصر والبسط والسلال والحقائب والأوعية... الخ هذه الأشياء التي استخدمها البابليون على نطاق واسع في حياتهم.

ولاقت الصناعات الجلدية البابلية تطوراً واسعاً وساعدها على ذلك كثرة الماشية في البلاد، فمن الجلود صنعوا الأحذية وأدوات التسليح «كالكنان / جعب السهام» والتروس والدرق والخوذ» وعدة الخيل «اللجامات والسيور والأعنه

أ- أداة كان القدماء يستعملونها للكتابة على الطين - المترجم.

ب- القيقب = الدلب الغربي «شجر» ويسمى أحياناً الدلب الكاذب. - المترجم.

والأطواق والحياصات /الأطواق التي تطوق مؤخرة الدابة/ والأرسان والسياط والفرو لحفظ السوائل «القرب» وكثير غيرها.

وكانت القرب الجلدية التي تنفخ بالهواء ويتم عبور الأنهار عليها عوماً مصنوعات آشورية بابلية خاصة ودخلت تلك القرب في قوام مهمات العسكري.

وكانت صناعة البيرة والسمن وصناعة الخمور والخبازة - صناعة الرغيف - وصناعة الحلويات وتحضير الدقيق والبرغل وأدوات الزينة وصناعة العطور.. الخ واسعة الانتشار في بابل كما تمتعت هذه البضائع بشعبية كبيرة عند الشعوب المجاورة.

وكانت صناعة الخزف من أقدم الحرف المهنية في تاريخ الإنسانية واختراع عجلة الخزاف علامة مميزة على بداية الحضارة.

وأكثر أنواع الغضار «الصلصال» البابلي المختلفة كانت متوفرة بكثرة ولا يوجد شعب واحد في العالم ولم يستخدمه.

بمثل هذه الدرجة من المهارة ولأغراض مختلفة جداً كما في سومر كذلك في بابل. وعوض الغضار عندهم في كثير من الأحوال عن نقص الحجارة والخشب والمعادن. ورافقت صناعة الخزف البابليين من الولادة حتى الموت. والناس أنفسهم بحسب معتقدات البابليين كانوا معمولين من الطين. وظلت براعة الخزافين البابليين - السومريين لا يمكن التفوق عليها على امتداد التاريخ القديم للشرق الأدنى كله وحافظت كل الشعوب المجاورة على نماذجها وقلدتها وظلت أدوات المعيشة الطينية تحضر بطريقة منزلية في القرن السابع قبل الميلاد ولكنها صارت منذ زمان بعيد لم تعد تكفي الحاجات المتزايدة للسكان الذين استعانوا بخدمات الخزافين - المحترفين.

ويجفف جزء من الآنية الطينية بالشمس وجزء يشوى في أفران الخزافين، ودخلت في زمن البلبلة الأواني الخزفية المغطاة بالميناء الملونة بالفيروز والأزرق والأصفر والأبيض والأخضر والبني والأحمر ومختلف الألوان المتباينة.

واخترع السومريون الزجاج منذ القدم واستخدم المعلمون «الحرفيون» البابليون المادة الزجاجية لصناعة البناء وصنعوا من الزجاج أيضاً الأحقاق «الزجاجات الصغيرة» وغيرها من المصنوعات وأكسبتهم شهرة خاصة المصنوعات من السبائك شبه الزجاجية التي تحاكي اللازورد الذي كان غالياً جداً في الشرق القديم. وسمى المصريون هذه السبيكة المستوردة من بابل الخسبيت الصناعي «أي اللازورد الصناعي».

وإلى جانب الآنية صنع الخزافون البابليون من الطين براميل النبيذ والصناديق والأنابيب والمواقد والتوابيت والمغازل والقناديل والتماثيل الصغيرة المختلفة[أ]. لغايات حياتية وعبادية والمناجل... الخ واستخدمت الألواح والمخاريط والأسطوانات

أ- الرقي والتعاويذ - المترجم

والمواشير كمواد للكتابة حتى أغلفة الرسائل على الألواح الطينية صنعوها من الطين.

وفي النهاية بنوا من الطين والآجر جميع المباني بدءاً من أكواخ «اكنان» الفقراء وانتهاءً بالقصور الملكية وشكلت لبابل صناعتها النسيجية شهرة خاصة وكانت الخامات الأساسية لها منذ القدم صوف الغنم وبدرجة أقل شعر الماعز.

وإلى جانب مصر كان جنوب بلاد النهرين موطن الكتان والكلمة السومرية «غادا Gada» أي «الكتان» انتقلت إلى البابلية «كيتو Kitu وكيتينو Kitinnu» التي استعارتها جميع اللغات السامية «الآرامية - العبرية «القطونية» - العربية «الكاتان»» ووصلت إلى اليونانية «خيتون Xuton واللاتينية «تونيكا - Tynuka» بمثابة تسمية لنوع محدد من اللباس وتستخدم في اللغة الإنكليزية المعاصرة لتسمية القطن «Cotton».

إلا أن الملابس والأقمشة الكتانية لاقت انتشاراً واسعاً في بابل فقط في القرن السابع قبل الميلاد بتأثير الأزياء السورية والمصرية تماماً في الوقت الذي وضعت فيه أساسات صناعة النسيج البابلية التي اكتسبت منتجاتها من ورشات مدن سيبار وأريدو ونارادا في العصر الهيليني - البارتي «من القرن الثالث قبل الميلاد إلى الثالث بعده» شهرة عالمية فهكذا مثلاً: في القرن الأول قبل الميلاد دفع الأغنياء الرومان لقاء غطاء مائدة للطعام «تريكليناريا بابيلونيكا «Triclinarriabobyonica أي ما يعادل ٨٠٠٠٠٠ سيسترس[أ] وبعد ١٠٠ سنة اشترى الإمبراطور نيرون مثل هذا الغطاء أيضاً بـ ٤ مليون سيسترس.

وكانت المعابد التي تتصرف بالمراعي والأراضي الواسعة هي المنتج الأساسي الذي قدم الصوف والكتان للاقتصاد الزراعي للبلاد. واستلم الأشخاص العاديون الصوف والكتان إما من المعابد بشكل «إعالة» و «رواتب» أو شراء من السوق لأنه لم يكن عندهم القدرة على تربية الأغنام وزرع الكتان في عقاراتهم الصغيرة.

ووصلت تربية الأغنام في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد إلى أبعاد لا مثيل لها من قبل وفي هذا العهد اخترعت وصارت المقصات الحديدية في متناول الاستعمال «المستعملين» لجز صوف الغنم، وكانت الأصواف تصل إلى الحرفيين بشكل عام وتعرض أولاً للتنظيف والغسل والكتان وفقاً لذلك يتعرض للضرب[ب] والتنظيف وبعد ذلك يغزل الصوف والكتان.

أ- السيسترس = Sesterce وحدة العملة الرومانية القديمة - المترجم.

ب- الخبط بالمخباط - المترجم

ولم يعرف الشرق القديم بما فيه بابل فلكة الغزل[أ] وكان الغزل يتم بواسطة المغزل اليدوي من قبل الغزالات النساء اللواتي كن يقمن بذلك عادة.

ويصبغ الصوف قبل الغزل أما الكتان فبعده واستخدموا لهذا الغرض الأصباغ العضوية المحلية «كألفوه[ب] والنيلة... الخ» والمعدنية المنشأ «كالمغرة[ت].... الخ». وحصل الحرفيون «المعلمون» البابليون من فينيقيا على الأرجوان الأحمر أو البنفسجي ذلك الصباغ الثمين الذي يحصلون عليه من أصداف البحر الأبيض المتوسط أو حصلوا من مصر على الشب[ث] الذي يستخدم لتثبيت الأصباغ.

ولم يبقَ أي معلومات عن بنية ورشات النسيج البابلية. ولكن الأقمشة البابلية لم تتنازل للمصرية التي تصنع في الورش الأفقية والعمودية[ج]. وعلى ما يبدو كانت الورشات البابلية من النوع نفسه الذي كان عند الشعوب القديمة.

ونسج الحائكون البابليون المصنوعات مباشرة كالملابس والستائر وأغطية السفرة وغيرها ولكن تعقدت إلى حد ما تفصيلات الملابس في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد بحيث ظهرت حرفة الخياطة.

وتعرض المنتجات المطرزة في النهاية إلى التسميد باللباد والغسالين الذين يدوسونها بالأقدام في حفر أو خوابي وتنقع بمحاليل من الزيت مع إضافة البوتاس والصودا وحجر الشب ثم تخبط بعد ذلك على مساند أسطوانية ثم تشطف وتجفف وتبيض بالشمس ثم تصقل بفراشي من الحسك والوبر.

ودخلت في التاريخ الموصوف «المذكور» المعادن - الحديد والنحاس والبرونز والقصدير والرصاص والانتيمون «الكحل» والفضة والذهب والالكتر بقوة في حياة البابليين.

واستعمل الحديد لصناعة أدوات العمل الأساسية والسلاح بدلاً من الحجر والنحاس والبرونز. وكان المعدن الأرخص والأوسع انتشاراً. أما المعادن الأخرى فقد استعملت لصناعة الأشياء الأغلى والأندر والمعادن ذاتها لم تكن موجودة في بابل وهي تستورد كلياً من الخارج ولذلك كانت غالية نسبياً.

أ- فلكة الغزل = دولاب الغزل - المترجم.

ب- ألفوه Mapeha - مارينا = Madder = نبات صبغي كان يستعمل في الصناعة يعطي لوناً أحمر يتراوح ما بين المعتدل والقاني - المترجم.

ت- المغرة = أوكسيد الحديدك المائي الطبيعي وتكون صفراء أو حمراء عادة. - المترجم.

ث- الشب = كبريتات الألمينيوم المائية وتكون بلون أبيض بلوري عادة - المترجم.

ج- يقصد بها الأنوال الأفقية أو المناسج العمودية المستخدمة في صناعة السجاد والبسط - المترجم

وكان الحديد يستورد في القرن السابع ق.م من إيونيا «في اليونان» وكيليكية ولبنان والنحاس والبرونز من إيونيا وقبرص.[1] واستوردت المعادن إما بشكل سبائك أو بشكل مصنوعات جاهزة كبضائع أو غنائم حربية أو جزية.

ولم يتوصل الحدادون البابليون إلى استخراج المعادن من الخامات ولكن عملوا بصورة دائمة على إعادة صهره لتحضير وتنقية السبائك، وحددوا بدقة تركيب سبائك الذهب والفضة واستطاعوا تنقية هذه المعادن من الشوائب.

وعالج المعلمون «الحرفيون» البابليون المعادن بالطرق والتصفيح - والدلفنة - والسك - والجلفطة والنقش.

وحظيت المجوهرات البابلية والأشياء الفنية من الذهب والفضة والنحاس والبرونز وكذلك الأقمشة والملابس الموشاة بخيوط الذهب والفضة بالشهرة عن جدارة.

ولم يحظَ العمل الحرفي بالاحترام خلافاً للعمل بالأرض والموقف السلبي من الحرفة والحرفيين خاص بالعالم القديم بالكامل لأنه حمل طابعاً تقليدياً مرتبطاً بالبناء الطبقي للمجتمع البابلي وتصوراً للشرف الاجتماعي الذي سنتحدث عنه أدناه.

والذي عزز هذا الموقف هو أن صفوف الحرفيين استكملت باستمرار من الأسرى والعبيد. وهكذا عندما احتل نبوخذ نصر الثاني عسقلان في عام ٦٠٤ ق.م وأورشليم في عام ٥٩٧ ق.م أدخل الحرفيين في قوام الأسرى. وتصرف البابليون بالضبط في كل الأحوال كالآشوريين من قبلهم مع الشعوب المغلوبة وتوزع جزء من الحرفيين على المعابد وبقي جزء في عداد العبيد الملكيين وجزء اشتراه البابليون عبيداً.

وثمن الحرفيين العبيد أعلى بكثير من ثمن العبيد الذين ليس عندهم اختصاصات لأنهم كانوا يقدمون للسادة ربحاً أكبر. وكقاعدة يطلق الحرفيون العبيد من أجل الجزية «مالاً أو عيناً» ويمارسون حرفهم من تلقاء أنفسهم ويدفعون الجزية وحصة معينة من المدخول «الأرباح» للسادة وكثيراً ما قام مالكو العبيد الميسورون بتعليم العبيد الفتيان والأذكياء الحرف وهذه عدة أمثلة عن حياة عائلة إكيبي:

- في ٢٤ تشرين أول عام ٥٣٧ ق.م سلمت نوبتا ابنة إدين - مردوك نجل نور - سين لمدة خمس سنوات الجارية اتكال - آنا - مردوك ليتعلم حرفة الحياكة وكان مالك الجارية زوج نوبتا إتي - مردوك - بالات المعروف عندنا رأس عائلة إكيبي المسافر في ذلك الوقت إلى ميديا وتولى المعلم بعل - إيتير - ابن نجل بعل - إيتير تعليم الجارية الحياكة واشترط بالعقد: على أن الجارية إذا لم تصبح متعلمة فالمعلم يدفع عنها إلى نوبتا جزية بمعدل ١ كا «أي ٨ ليتر» شعير عن كل يوم أمضاه في تعليمها، ونوبتا من جهتها يتحتم عليها إعالة عبدتها بتقديم اللباس و١ كا من الخبز إليها في اليوم وفرضت غرامة ١/٣ من من الفضة على مخالفة العقد، وأنهت اتكال - آنا - مردوك التعلم بنجاح «وفقا للعقد في ٢٥ تشرين أول عام ٥٣٢ ق.م» وصارت

تعمل عند المعلم أيضاً بمثابة عبدة بالأجرة ودفع المعلم بعل - إيتير عنها في ٢٩ آب عام ٥٣١ ق.م إلى إتي - مردوك - بالات ٥ شواقل «أي ٤٢ غ» من الفضة كجزية بالإضافة إلى ٤ شواقل «أي ٣٣.٧ غ» من الفضة مدفوعة سابقاً فيكون المجموع الذي قدمته العبدة إلى سيدتها عن ١٠ أشهر عمل عند الحائك ٩ شواقل «أي ٧٥.٧ غ» من الفضة دخلاً صافياً وهذا يساوي تقريباً نحو ١ شاقل بالشهر أو ١٨% سنوياً من القيمة المتوسطة «التي هي ٥٠ شاقل من الفضة» وهذا يتوافق مع السعر المتوسط لفائدة الدين «٢٠% سنوياً» في ذلك العهد.[2]

وسلم أيضاً إتي - مردوك - بالات عبيده للتعلم في ٢٤ تموز عام ٥٣٣ ق.م وهم العبد إينا - كاتي - نابو - بولتو لمهنة طاهي لمدة ١٦ شهراً إلى المعلم ريخيتي.

والعبد باسي في ١ كانون الثاني عام ٥٣٠ ق.م والعبد غوزو - آنا - بعل - أتسبات لمهنة نقاش على الحجر لمدة ٤ سنوات إلى المعلم حسداي عبد ابن الملك قمبيز وفي أيلول عام ٥٢٦ ق.م العبد آمل - شوكاني إلى مهنة اللباد لمدة سنتين وثلاثة أشهر إلى المعلم إدّي ابن كي - سين، وسلم مردوك - ناصر - إبلي الابن الأكبر وخليفة إتّي - مردوك - بالات في ١٢ آذار عام ٤٩٥ ق.م عبده إتي - أوراش - بانيو تلميذاً للطاهي غوزان ابن خاماك نجل إزميريتل. وزوجته آمتي - بابا ابنه كالبي نجل نابائي سلمت في ٢١ شباط عام ٥٠٤ ق.م عبدها الدباغ اولتو - بانيبال - لوشولوما ليعمل بالأجرة عند المعلم نابو - بوللياتاني عبد عا - ناصر حفيد كاهن الإله عا الذي تعهد برفع مستوى «مهارة» العبد صبي صانع ويدفع عنه إلى السيد ١٠ جلود مدبوغة ويسمح للصبي بتنفيذ طلبات السيد.[3]

وهكذا تصرف مالكو العبيد الآخرون نابو - شوم إدين ابن آردي وزوجته إينا - إيساجيلي - بعليت ابنة شمش - إيلو الذين سلما في ٢٥ آب عام ٥٣١ ق.م. عبدهما نيدينت ليتعلم عند المعلم الغسال ليبلوتو ابن أوشاي لكي يسلم ذاك عند انتهاء التعليم العبد إلى الإله شمش وهذا يعني لمعبد إبابار في سيبار.[4]

وكان عند نابو - أريشا ابن تابينا نجل آخو - باني الجارية الغسالة شالمو دينيني الذي كان مجبراً على رهنها عند نابو - آخي - إدين ابن شولي نجل إكيبي لقاء دين مقداره ١/٢ من «٢٥٠ غ» من الفضة[5] ففضل الدائن أن يستفيد من مدخول الجارية الغسالة بدلاً من فائدة الدين - لأن ذلك كان أفضل.

وكقاعدة كان المعلم يأخذ من السيد أجرة عن تعليم العبد وعادةً كان يطعم الأخير ويكسوه على حسابه وكان يغطي نفقاته بالاستفادة من عمل التلميذ وبمثل هذه الشروط سلك مالكو العبيد والمعلمون. وبالحقيقة استطاع تسليم العبد الذي من الضروري «يجب» أولاً شراؤه ثم تربيته إلى التعليم فقط مالك العبيد الميسور الذي عنده القدرة على الانتظار عدة سنوات إلى أن يبدأ العبد بتقديم الدخل إليه، وعادة لم تكن إمكانية التعليم هذه متوفرة عند مالكي العبيد الصغار.

وصار بعض العبيد الحرفيين أغنياء ومع الوقت افتدوا أنفسهم وصاروا أحراراً وفي بعض الأحيان كان كثير من الأشخاص الأغنياء المحترمين للغاية من أوساط

البابليين في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد يحملون أسماء حدادين وفاخوريين وصائغين ونجارين وسلالين وغسالين وحائكين... الخ وذلك علامة أكيدة على أن أسلافهم كانوا حرفيين وربما عبيداً وخلافاً لذلك لم يمارس أحفادهم الحرف أبداً.

ووصلت الحرفة البابلية إلى مستوى الإنتاج العالي في وقت التطور المنخفض نسبياً للتقسيم الاجتماعي للعمل بين الحرفة والعمل الزراعي فالحرفة في بابل لم تنفصل كلياً عن التدبير المنزلي وعن ذلك يمكن أن نحكم على طابعه من وجهة النظر الاجتماعية - الاقتصادية من حالة إنتاج اللباس في بابل، ولماذا اللباس خاصة؟ أولاً لأن اللباس وبخاصة عند الشعوب المتحضرة إلى جانب الغذاء والمسكن يعود إلى الحاجات الأولية التي من دونها لا يمكن للإنسان أن يكون موجوداً - وثانياً في جميع المجتمعات ما قبل الرأسمالية كان إنتاج اللباس هو الشكل الرئيس للنشاط الصناعي. ومستوى تطوره الذي يحدد مستوى الأشكال الصناعية الأخرى، وبقي إنتاج اللباس عند البابليين في القرن السابع قبل الميلاد مستمراً كفرع من التدبير المنزلي. فكل عائلة ما حرمت من القدرة على العيش بوسائطها وأمنت لنفسها لباسها الذي عملت النساء بتحضيره بمساعدة الإماء إذا كن موجودات في الأسرة وها هي عدة حالات من الحياة البابلية.

في ١٣ كانون الأول عام ٥٦٣ ق.م سعى الأجير شمش - إدين ابن تابي من قرية نورياً للعمل عند بولتي ابن سين - ليك - اونيني نجل إدين - بابسوكال لقاء ٢ من «١ كغ» من الصوف ومقدار معين من الشعير.

وفي ١٨ أيلول عام ٥٥٣ ق.م في مدينة سيبار وبأمر من ناید - مردوك ابن شمش - بالات - إكيبي خصص لزوجته المطلقة رامو وابنها آردي إعاشة بهذه المقادير ٤ كا «٣.٤ ليتر» خبز و٣ كا «٢.٥ ليتر» سيكير «نوع من النبيذ» في اليوم و١٥ من «٧.٥ كغ» من الصوف و١ بان «٣٠.٣ ليتر» من السمسم و١ بان من الملح و٤ سوتو «٢٠.٢ ليتر» من الخردل بالسنة.

وفي ٩ حزيران عام ٥٣٠ ق.م في سيبار أيضاً أعتقت المرأة خيبتا عبدها بازوز الذي تعهد أن يدفع لها إعاشة: من الصوف والسيكير والنعاج والخردل... الخ.[6]

وكما رأينا تضمنت الإعاشة العينية للأجير والمرأة المطلقة والسيدة التي حررت العبد على الصوف.

ويتلقى عدد كبير جداً من الأشخاص في المعابد مؤونة عينية يدخل في قوامها الصوف أيضاً والكتان نادراً[7]، وتصرف جميع هؤلاء الناس بتدبير منزلي خاص وكان الصوف والكتان يحتاج إليهما في صناعة اللباس بالظروف المنزلية وكان عبيد المعابد الذين ليس عندهم تدبير خاص «أي ملكية خاصة» يستلمون من مستودعات المعابد لباساً جاهزاً[8] أعده عبيد المعبد الحرفيون وهذا يعني في جوهر الأمر بظروف منزلية أيضاً.

وظلت غالبية سكان بابل في القرن السابع قبل الميلاد تلبس اللباس المصنوع منزلياً مستغنين عن مصنوعات الحرفيين - المحترفين، ولكن في الوقت نفسه كان هناك عدد كبير من الناس الذين لم يلب اللباس المنزلي طلباتهم أيضاً وكان هؤلاء ممثلي الطبقات الغنية الذين يبحثون عن اللباس حسب الموضة والتأنق في الطرقات باللباس الجميل الذي صنعه معلمون محترفون محنكون.

وهكذا في ٤ كانون أول عام ٥٦٩ ق.م طلب رجل الأعمال الغني ومالك العبيد نابو - آخي - إدين ابن شولي - نجل إكيبي من المعلم - العبد سليم - بعل غطاءً للرأس بقيمة ٦ شواقل «٢٥.٥ غ» من الفضة وتعهد المعلم بتلبية الطلب بعد نصف عام[9] وطلب رجل أعمال بابلي آخر شيلبي ابن إدين نابو نجل كوز - نيتسا في ١٠ كانون ثاني عام ٤٩٨ ق.م[10] من الحائك أيلي أبن بير - أو نجل آمل - أ ملابس داخلية جديدة بقيمة شاقل «٨.٤ غ» من الفضة وتعهد المعلم بإنجازها قبل ٢٨ أيار عام ٤٩٨ ق.م.

ومن بين ملاك المعبد هناك كثير من الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبقات المميزة الذين يفضلون استلام النقود كإعاشة لشراء اللباس على ذوقهم بدلاً من الصوف والملابس الجاهزة[11]، ولشراء الملابس احتاجوا أيضاً إلى الطبقة العاملة من السكان المحرومين من الملكية الخاصة العائشين على المياومة والمكتسبات ألقَرَضية المختلفة. ولم يستطيعوا إنتاج اللباس في الظروف المنزلية، وكان من المتوجب عليهم الحصول عليه وفي مثل ذلك الوضع وُجِدَ الناس الدخلاء الذين لم يكونوا قليلين في بابل وغيرها من مدن البلاد.

وفي النهاية كان هناك مستهلك آخر للباس المصنوع عند الحرفيين المعلمين المحترفين في المعابد التي كان في كل منها عدد كبير من أصنام الآلهة المحاطين بالعدد الوفير من مَلاك الكهنة والخدام والكثير من المساكن، وكان يجب إلباس الأصنام والكهنة وترتيب مساكن المعابد «تزينها» وتغيير اللباس والزينة مراراً وفقاً لمتطلبات الطقوس الموزعة بدقة على الشهور والأسابيع والأيام وحسب أوقات اليوم، ولزم لهذا الغرض الأنواع المختلفة من الثياب وأغطية الموائد والمطارف والستائر والسجاد

ربة منزل بابلية خلف المغزل

والبرادي.. الخ الأغلى والأعلى جودة.

وفي القديم غطت المعابد هذه الاحتياجات بقواها الخاصة على حساب الغنائم الحربية والجزية التي يفرز الملوك جزءاً منها إليهم «للمعابد».

والآن صارت الاستفادة من خدمات الحرفيين المحترفين الأحرار وأرخص بكثير ويوجد في وثائق المعابد مقدار عظيم من الحرفيين وبالمهن الأكثر تنوعاً العاملة في المعابد.

وهكذا قامت ورشة الحياكة التابعة أولاً لنابو - بعل - شوماتي ابن دوماكا ومن بعده لابنه نابو - ناصر - أبلو بخدمة معبد إبابار في سيبار مالا يقل عن ثمانين عاماً «من سنة ٦٠٨-٥٣١ ق.م».

وتوفي نابو - بعل - شوماتي في عام ٥٤٥ ق.م الذي في عهد خليفته نابو - ناصر - أبلو حان وقت ازدهار الورشة وعمل فيها ما لا يقل عن ١١ شخصاً بما فيهم العبيد والأحرار المأجورون، ولعب الدور الرئيس بينهم باكوا عبد صاحب الورشة الحائك المؤهل عالياً الذي كثيراً ما تولت الورشة بواسطته طلبات المعبد وتسلمت المنتجات الجاهزة واستلمت أجرة الأعمال.

وعادة يطلب المعبد من الورشة كمية محددة من المصنوعات ويؤمن لها المواد إما خاماً «صوف - كتان - أصبغة - شب» أو نصف مصنعة «صوف مصبوغ وكتان مغزول» وشكلت منتجات الورشة في جميع الأحوال المصنوعات الجاهزة، وجرت في الورشة جميع أنواع أعمال الحياكة فهنا غسلوا الصوف وهنا ضربوا ونظفوا الكتان وصبغوا وغزلوا وحاكوا ونفضوا وغسلوا وطرزوا. وصنعت الورشة جميع أنواع البضائع النسيجية والكتانية والصوفية المعروفة البيضاء منها والملونة كالتنورات الخارجية والداخلية والمعاطف والأردية والشملات والمناطق «الزنانير» وأغطية الرأس والأغطية والعباءات والسجاد والستائر والمصنوعات الأخرى وقدمت إنتاجها بالقطعة وبالوزن ويصاغ كل طلب وكل استلام للمواد بفواتير يشار فيها إلى المنتج وليس إلى الورشة عامة بل إلى كل عامل - إفرادياً لأن المعبد صاحب الطلب أعطى أهمية كبيرة لنوعية المصنوعات التي تتوقف بشكل فردي على مهارة المبدع المنشئ ولكن هذا النوع من الحساب كان ممكناً فقط لأنه لم يكن في الورشة توزيع مفصل للعمل بين العاملين وجهد كل منهم لم يكن مجرداً من الصفات الشخصية[أ].

أ- المقصود لم يكن ضائعاً أو مهضوماً - المترجم

وكل عامل في الورشة وليكن صاحبها نابو - ناصر - أبلو بالذات أو عبده باكوا ينفذ من تلقاء نفسه جميع عمليات العمل الأساسية.ويتلقى معلمو ورشة النسيج لقاء عملهم أجراً مالياً أو منتجات «شعير - تمر... الخ» ويحسب لكل منهم أيضاً إفرادياً وفقاً لكمية ونوعية الأشياء التي صنعها ولكن الذي يستلم هذا الأجر إما صاحب الورشة أو عبده باكوا لأن الأجر الحقيقي للعمال الأحرار ناهيك عن العبيد يحدده صاحب الورشة وليس المعبد.

وأحياناً يقدم المعبد بمثابة أجرة للعمل صوفاً يستخدم في الورشة لصناعة البضائع التي تعود لا للمعبد وإنما لمستهلكين آخرين فالورشة لا تعمل فقط للمعبد وإنما للسوق أيضاً.[12]

وحملت أعمال الورشات المحترمة الأخرى كالنسيج والحدادة والصياغة والدباغة «الجلود» والخزف.. وغيرها طابعاً مماثلاً وفي القرن السابع قبل الميلاد لم تنفصل الحرفة في بابل كلياً عن التدبير المنزلي ومارس أغلب السكان الاقتصاد العيني الذي نزعوا بواسطته إلى اقتناء اللوازم. وسعى كل مالك ليؤمن لنفسه بنفسه جميع الضروريات، ففي التدبير المنزلي قاموا بصناعة الغذاء واللباس والأحذية والأوعية الفخارية والمفروشات واللوازم الأخرى ولجؤوا إلى مساعدة السوق فقط عندما لم يستطيعوا تلبية حاجاتهم بقواهم الخاصة وظل العمل بطلب المواد من الزبون يلعب دوراً مهماً جداً في الإنتاج الحرفي وكان هو الشكل الأولي لفصل الحرفة عن العمل الزراعي المميز تماماً في عهد سيادة الأشكال العينية للاقتصاد.

وهكذا كان التوجه السائد في إدارة الاقتصاد، ولكن هذا المبدأ التقليدي فجر دائماً وعزز ارتباط التدبير المنزلي مع السوق، فكثير من متطلبات الأعمال المعدنية والحجرية والخشبية مثلاً كان من المستحيل تلبيتها في حدود التدبير المنزلي.

زد على ذلك أن المتطلبات الأخرى نمت لدرجة أن التدبير المنزلي لم يعد يقدر عليها وفي النهاية إن تعاظم ازدياد عدد الناس المحرومين من إمكانات القيام بذاتهم بالتدبير المنزلي ساعد بمجمله على تقدم الحرف وتطور إنتاج المواد الحرفية للسوق وليس للزبون وهذا يعني الإنتاج السلعي «البضائعي» بكل ما لهذه الكلمة من معنى وكان هذا من الناحية النوعية مرحلة جديدة في تطور الحرفة وتخصصها في مجال نشاط إنتاجي مستقل. وتزعزعت أسس التدبير المنزلي تدريجياً ونتج عنها انفصال الحرفة عن الزراعة.

ومضت هذه العملية في بابل في القرن السابع قبل الميلاد بعيداً إلى درجة كافية وبدأت حرف الحدادين والنجارين والخزافين والحياكين والسلالين والدباغين وحرف أعمال الذهب والفضة، الصائغين، والنقاشين على الحجر والبنائين وغيرها من الحرف المعروفة منذ القديم في التاريخ المذكور بالتوزع، وهكذا ظهرت إلى جانب الحياكة عموماً حياكة الصوف وحياكة الكتان وحياكة الأقمشة الملونة والحياكة بخيوط الذهب كما ظهرت حرف كالصباغين والخياطين واللبادين والغسالين، وحرفة الحدادين تفرعت إلى حدادي الحديد والنحاسين، وحدث الشيء نفسه في فروع

الحرف الأخرى. إلا أن التفريق فقط بدا داخل الحرفة ولم ترتسم بعد الحدود الدقيقة بين الأقسام الناشئة في الإنتاج الواحد.

ولم يوجد في الحرفة البابلية أيضاً توزيع دقيق إلى حد ما للعمل خارج الورشة وبهذا يتلخص اختلافها النوعي عن الحرفة الإقطاعية في القرون الوسطى[أ].

وكان انعدام التعبير الدقيق عن توزيع العمل في داخل الورشة خاصة نوعية أخرى للحرفة البابلية فكانت الورشة عبارة عن تعاونية بسيطة وكل عامل فيها ينفذ العملية نفسها التي يقوم بها رفيقه، وهذه الميزة تجمع بين الحرفة البابلية والحرفة الإقطاعية وتميزها نوعياً عن المانيفاتوره «معامل النسيج» الرأسمالية المؤسسة تماماً على التقسيم الدقيق التفصيلي للعمل داخل الورشة.

وحملت الحرفة البابلية، بمستوى تطورها ودرجة تقسيم العمل الموجود فيها، الصفة نفسها مثل الحرفة اليونانية والرومانية القديمة. وهي لم تكن إقطاعية ولا رأسمالية وإنما حرفة قديمة العهد.

وارتبط تطور الحرفة ارتباطاً وثيقاً مع تطور الترابط التجاري والسلعي البضائعي وخلافاً للعالم الزراعي ينتج الحرفي دوماً سلعاً للبيع وليس للاحتياج الشخصي، وساعد الانفصال الطبقي «التطبق» الموجود في المجتمع أيضاً والنمو السكاني غير الزراعي في الأغلب على تطوير التجارة في بابل.

إن انعدام تلك الأنواع من الخامات في البلاد كالحجر والخشب والمعادن من جهة واقتصادها الزراعي الغني من جهة أخرى أدى إلى التطور المبكر جداً للتجارية الخارجية.

وتعززت منذ زمن بعيد حتى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد شهرة بابل كمركز تجاري للشرق القديم كله. فهنا كان يمكن أن تشتري وتبيع أي سلعة معروفة في العالم القديم، وعملت أبواب المدينة والشوارع والأزقة والعطفات المسدودة أماكن للتجارة حيث توزعت الدكاكين والورش الحرفية والخانات ومن الفجر إلى الفجر ما دامت الأبواب مفتوحة يعج السوق الشرقي كقفير النحل بألوانه الكثيرة فهنا باعوا واشتروا وساوموا وأقسموا ولعنوا وتشاجروا وتصالحوا وغشوا بعضهم بعضاً مدنيين وريفيين من سكان البلاد باعة متجولون وحانوتيون وتجار الجملة.

وازدحمت بازارات «أسواق» بابل بأناس من مختلف القبائل واللغات وتترك جلبة «هرج ومرج» المساومات البابلية انطباعاً صاعقاً عند الغرباء الذين وجدوا أنفسهم فيها للمرة الأولى.

أ- وهكذا أحصي في مدينة فرانكفورت على الماين الألمانية في القرنين الرابع والخامس عشر ٣٥ اختصاصاً في معالجة المعادن، وصناعة الخشب ١٧ وأعمال البناء ١٩ اختصاصاً، ولكل منها تنظيمه الورشي الخاص.

وليس عبثاً نشأت عند الأسرى اليهود الذين نشؤوا بعيداً عن أورشليم أسطورة أن الإله أجبر عمداً البابليين المتعجرفين المعتزين بثرواتهم أن يتحدثوا بألسنة مختلفة لكي لا يفهموا بعضهم بعضاً.

إلا أن مبدعي الأسطورة أخطؤوا أخيراً بصورة مؤكدة وفهمت البازارات البابلية دائماً بعضها بعضاً بصورة جيدة وعلمتهم الحياة أن يتقنوا في الحد الأدنى اللغتين الآرامية والبابلية. فاتجروا بالآرامية عادة وكتبوا العقود إما بالبابلية المسمارية على ألواح من الطين أو بالآرامية بالحبر على قطع الرق أو الجلد أو البردى بلويحات خشبية أو طينية مدببة. وبسبب متطلبات التجارة نشأت ضرورة تطوير طرق المواصلات والنقل بما يتوافق معها. فعملت السدود طرقاً برية بين القنوات البابلية المتقاطعة حيث عبرت عليها الطرق الملكية الرئيسة من جميع أطراف البلاد وتحركت عليها العربات المقرونة إلى «التي تجرها» الحمير والبغال والثيران وقوافل الدواب من الحمير والجمال.

بيد أن النقل المائي لعب منذ القديم دوراً خاصاً في البلاد لأن الأنهار والقنوات هي طرق المواصلات الأسهل والأرخص.

وكان عند البابليين أنواع مختلفة من المراكب والقوارب التي تسير بالمجاذيف أو بقوة الرياح «الأشرعة» وانتهاءً بمكوكات الصيادين المصنوعة من القصب. وكان النوع الأكثر انتشاراً من مراكب النقل البابلية التقليدية هو القفّه التي وصفها هيرودوت على النحو التالي: «إن المراكب البابلية التي تمخر أنهار بابل شكلها مستدير ومصنوعة كلياً من الجلد. حيث يقطعون الصفصاف من أرض الأرمن الذين يعيشون إلى أعلى من الآشوريين ويصنعون منه جوانب المركب ثم يغلفونها بصفائح من الجلد ويصنعون القاع بطريقة مماثلة ولا يفرجون جدران الكوثل[أ] ولا يضيقون المقدمة ولكنهم يعطون المركب شكل الترس المدور. وبعد ذلك يملؤونه بالتبن، ويحملونه ويطلقونه نحو السافلة[ب] ويتكون الحمل بشكل رئيس من براميل نبيذ التمر ويوجه المركب».

أ- مؤخرة السفينة - المترجم

ب- أي نزولاً مع التيار - المترجم

بواسطة دفتين ورجلين واقفين بطول قامتهما أحدها يجذب الدفة إليه والآخر يدفعها عنه، وهذه المراكب منها الكبيرة جداً والأقل بقليل يحمل أكبرها خمسة آلاف تالنت «أي ١٣١ طن» من الحمولة. ويلحق بكل مركب حمار واحد والأكثر ضخامة عدة منها وعندما تصل المراكب إلى بابل وتباع الحمولات بالمزاد يتخلصون من أضلاع المركب والتبن، وأما الجلد فيحملونه على الحمير وينقلونه إلى أرمينيا. ولكن بسبب سرعة التيار لا تستطيع هذه المراكب إطلاقاً أن تطفوا «تمخر» إلى أعالي النهر ضد التيار. وعند وصول العائدين بالحمير إلى أرمينيا يصنع البابليون بالطريقة نفسها مراكب لهم وهكذا كانت المراكب عندهم»[14].

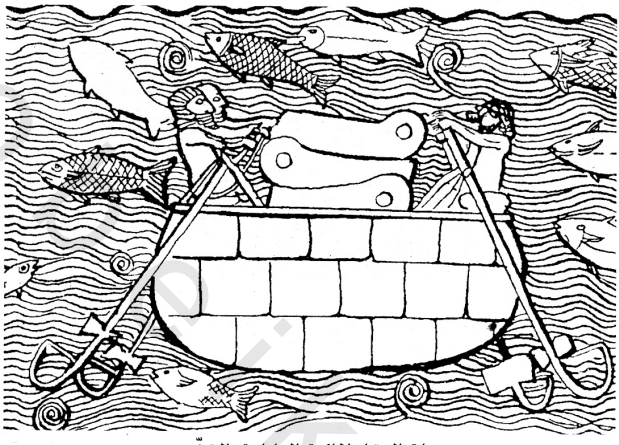
وسيلة النقل المائية البابلية: القفّه

وفي القفف مخر سكان العراق في تلك الأيام على غرار البابليين في الدجلة والفرات ويستخدمون حتى الآن واحداً من أنواع المراكب البابلية وهو الكِئِلـه[أ] الذي يعوم على قرب جلدية منفوخة بالهواء.

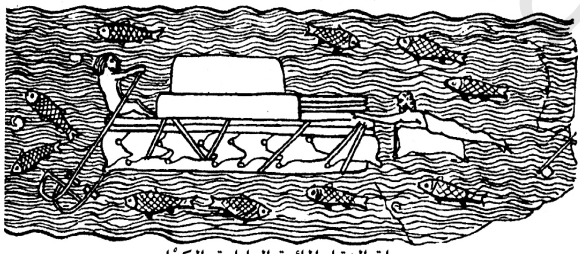
وسيلة النقل المائية البابلية: الكِئِله

وبلغت العلاقات السلعية - النقدية في بابل مستوى عالياً جداً بالنسبة للعالم القديم وظهرت العملة هنا كمعادل عام للقيمة بشكل قطع وصفائح من الفضة في أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد عند السومريين وورث البابليون هذا النظام المالي. وابتكرت النقود في ليديا في القرن السابع قبل الميلاد التي سرعان ما صارت تسك «تضرب» في كل أنحاء العالم القديم.

أ- الكيلة = Kerek = Keel = سفينة مسطحة القعر لنقل الحمولات - المترجم.

وأمر الملك الفارسي داريوس الدول «٥٢٢-٤٨٦ ق.م» بنظام مالي وحيد في كل الإمبراطورية الفارسية من شواطئ بحر إيجة إلى الهند. واقتبست جميع الأنظمة النقدية القديمة النسبة الوزنية وتسمية أجزاء الوحدات النقدية الأساسية من البابليين إلا أن البابليين كانوا الشعب الوحيد الذي لم يعترف بإصرار بالنقد وظل متمسكاً بعناد بالنقود الوزنية التقليدية. وظلوا يتعاملون بالفضة بالوزن ولم يعيروا انتباهاً للسك. وهكذا هم تعاملوا ليس فقط مع النقد الفارسي وإنما بعد ٣٠٠ سنة أيضاً مع الستاتيرات[أ] الفضية السلوقية. وإن عدم رغبة البابليين بالاعتراف بالنقود لا تفسر إطلاقاً بجمودهم فهم تمسكوا بدقة بتداول نقدي معدني وحيد وكانت الفضة هي المتداولة عندهم فقط كنقود، بينما استعملت الشعوب المجاورة النقود الذهبية والفضية وألالكتريه[ب] والنحاسية والرصاصية وحتى الحديدية، وكان تنظيم الأسعار بكل هذه النقود معقداً جداً واعتبر البابليون أن التداول السابق بالفضة بالوزن هو عملي وأكثر ملائمة.

وعلاوة على ذلك هم لم يملكوا فضة خاصة وإنما استخدموا المعدن الغريب المختلفة درجات نقاوته للغاية، ووجدت في الاستعمال «الفضة الخالصة» و «الفضة البيضاء» وسبائك بعيارات ١/٦ و١/٥ و١/٨ و٢٠ قيراطاً... الخ وعند مثل هذا الاختلاف في النوعية وتبعاً لذلك قيمة الفضة كان من الملائم التداول بها بالوزن. وهكذا تداول البابليون إن كانت الفضة موسومة «يعني نقداً» أو غير موسومة.

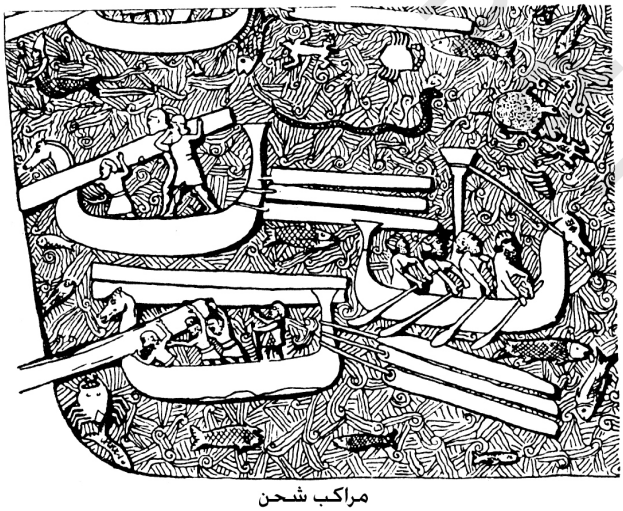
مراكب شحن

وإلى جانب الاتجار بالبضائع ازدهرت في بابل تجارة النقد بالمراباة إلا أنه مضت تلك الأيام التي في سالف الزمان عندما كان المرابي لقاء مقدار قليل من الشعير أو التمر يستعبد المدين ويحوله إلى عبد، فمنذ عام ١٧٩٠ ق.م بعد إصدار قوانين الملك حمورابي المشهورة ألغيت عبودية الدين للمواطنين البابليين. وبدا المرابي في زمن البلبلة أكثر تحضراً وتأدباً من أسلافه إلا أن ذلك لم يمنعه من تلقي تلك الأرباح التي لم يحلم بها.

أ- الستاتير = Stater = Ctatepb = الدينار المديني = وحدة نقد ذهبية أو فضية قديمة في «مدينة - دولة» إغريقية - المترجم.

ب- الالكتروم «الالكتر - عند المؤلف» = Electrum = مزيج طبيعي من ذهب وفضة - المترجم.

وتغلغلت المرابـاة فـي كـل مسـام الحيـاة اليوميـة البابليـة وتركـت عليهـا وعلـى البابليين أنفسهم طابعاً لا يمحى عكسته القصص ووثائق العمل البابلية الحديثة «يقصد في عهد الدولة البابلية الحديثة» حيث وضع «التزام» بسيط شامل كـان فـي الأسـاس التزاماً مالياً، وهذه الوثيقة «الالتزام» تصلح لتثبيت أكثر العقود /الصفقات/ تنوعاً كـالقروض والسـلف والاسـتعارة والاعتمـاد والطلـب مـن الحـرفيين أو التجـار ودفـع الأجـور وأجـور السـكن ومختلـف أنـواع التوريـدات والرسـوم والمكـوس والجبايـات والعوائد والضرائب... الخ.

وكل دافع، بغض النظر عن طبيعة الدفع بالنسبة لمثل هذه الصياغة للصفقات، يصبح بوضع المدين المستلم فالدائن والمدين - هما الشخصان الأساسيان في علاقات العمل البابلية مهما كان محتواها.

وكان المرابي يتلقى ريعاً بشكل فائدة تسليف مئوية تراوح سعرها فـي القرن السـادس قبـل المـيلاد مـن ١٠ إلـى ٣٣ أي ١/٣% سـنوياً وكـان السـعر العـادي جـداً بالنسـبة للعمليـات الماليـة هـو ٢٠% سـنوياً وكـان هـذا المعـدل البـابلي للأربـاح. وهـو المستوى الذي تقارن به كمية الأرباح - الفائدة» في أي مجال من النشاط الاقتصـادي فـإذا أعطـت الأرض أو البيـت أو العبـد أربـاحـاً أقـل مـن ٢٠% مـن قيمتهـا بالسـنة فيعتبرون غير اقتصاديين.

وكـان عنـد البـابليين تصـور دقيـق لـرأس المـال المتشـكل أيضـاً عنـد السـومريين منـذ الألف الثالثة قبل الميلاد وسموه «رأس» وبالسومرية «ساغ - دو Sag - du» وفـي البابليـة «كاكـا - دو qaqa - du» والكملـة «كابيتـال - Capital» المستعملة حالياً لهـا أصـل سـومري بابلي.

وسـمى السـومريون والبـابليون المبلـغ الموضـوع بالتبـادل أو الموظـف بعمليـة تشـغيل ويـأتي بـالربح رأسـمالاً، لأنـه كـان معروفـاً عنـدهم بشـكل ممتـاز أن الصـفة الرئيسة لرأس المال أنه يأتي بالربح.

وفي حال الشك بقدرة المدين على الوفاء يؤمن الدين برهن الأرض أو البيت أو العبد أو أي شكل آخر من الممتلكات، وهنـاك شكلان أساسيان للرهن همـا الإيبوتيك والرهن بوضع اليد«أنتي خريس». ففي «الإيبوتيك» يبقى المرهون عند المدين ولكن إذا كان ذلك لا يستطيع تسديد الدين يصبح للدائن الحق بامتلاك المرهون. وفـي الـرهن بوضع اليد يصبح المرهون في الحال تحت تصرف الدائن ودخله بمثابة فائدة للقرض والنوع الخاص من الرهن هو عبارة عن الرهن العام أو العقاري العام الذي تصبح فيه جميع ممتلكات المدين رهناً. وهو يستخدم في الحالات التي تكون فيها قدرة المدين على وفاء الدين لا تستدعي الشك ولكن هناك تخوف من أنه لا يدفع الدين. وفي هذه الحالة يستطيع الدائن أن يسترد ماله على حساب أي ممتلكات للمدين. ويُلجأ «للإيبوتيك» عندما لا يستطيع المدين أن يقدم رهناً معيناً مكافئاً في القيمة للدين لذلك يشار في الكمبيالة إلى الرهن الحقيقي وفي الوقت نفسه إلى «الإيبوتيك». وللدائن الحق

باستملاك الرهن. ويغطي القسم الباقي من الدين على حساب الممتلكات الأخرى للمدين.

ولم يكن استرداد الدين من المدين في بابل زمن البلبلة عملاً بسيطاً دوماً فالدائن لم يكن له الحق على شخصية المدين وحقه على ممتلكات الأخير كان محدداً للغاية. فالدائن كان يستطيع فقط أن يستملك الرهن ولكن حتى هذا كان يعتبر عملاً لا أخلاقياً.

والمرابـاة بالشكل العلني «المكشوف» كانت تثير الاستنكار ولذلك يلجأ المرابون كثيراً للتمويه بنشاطاتهم فهم يسلمون القرض بكفالة شخص ثالث وفي حالة الجزاء لا تستملك ممتلكات الراهن وإنما ممتلكات الكفيل، وللدائنين بعد ذلك أيضاً دعوى ليس على المدينين وإنما على كفلائهم وكثيراً ما يتوصل الدائن إلى بيع ممتلكات المدين ويسترد بتلك الطريقة الأموال وليس الممتلكات نفسها وعند ذلك كان مشترو ممتلكات المفلس في كثير من الأحوال أشخاصاً صوريين من عداد زبائن الدائن وفي نهاية الأمر تقع على الرغم من ذلك في يدي الدائن ولو بطريق ملتوية.

وفي حال عرفت فيه المراوغة والوقاحة يمكن أن يفلت المدين مع دفع الدين والمرابي لا يملك دوماً إمكانية إجباره على الدفع.

وتكبد بعض المرابين لقلة التجربة وبسبب الإفراط بالثقة بالناس الخسائر ولكن الأرباح فاقت المخاطرة: فبسعر ٢٠% سنوياً ودفع دقيق للفوائد يعوض المرابي بعد ٥ سنوات رأسماله بالكامل وإذا أخذ المدين يلهث تحت أعباء الدين والفوائد لا يسارع المرابي «الإنساني» للإيقاع به وإنما على العكس من ذلك يعطيه قروضاً جديدة ومن ضمنها حتى التي من دون فوائد لكي يبقى بوضع يستمر فيه بدفع الفوائد ويقع المدين لسنوات طويلة في شراك المرابي وفي بعض الأحيان يمتد الأمر من جيل إلى جيل.

وأقلع المرابي في زمن البلبلة عن أن يكون نمراً يسعى لالتهام فريسته وتحول إلى عنكبوت صبور يمتص تدريجاً كل عصارة الحياة.

وفي معظم الحالات الساحقة لا يستطيع المدين الامتناع عن دفع الدين فهو يعرف جيداً إنه يحرم من الدائن إذا أقدم على خداع المدين، وبالنسبة للكثير جداً من البابليين يعني هذا الإفلاس الفوري والكامل دون أي بارقة أمل في الوقوف من جديد على الرجلين لأن خيوط العناكب لأي دين كانت رهيبة وهذا هو الذي جعل المدينين يصبرون على ظلم المرابين.

وكانوا في كل صفقة «عقد» مهما كانت قليلة الشأن ولا تخص أياً كان من الأقرباء المجاورين نسبياً أو أخاً أو زوجة أو ابناً أو ابنة أو أباً يسجلون ذلك كتابياً، فعندما يصل الأمر إلى المال تخرس أصوات القرابة والصداقة والمودة التي تربط ما بين البابليين، ولذلك يترك المجتمع البابلي انطباعاً تشمئز منه النفس عند كثير من الغرباء الذين يحتكون به عن قرب وليس من قبيل المصادفة إن صارت بابل في الكتاب المقدس مرادفاً للحماقة والطمع والقسوة.

وينتمي أخلاف إكيبي إلى عداد أكثر ممثلي عالم الأعمال البابلي الحديث «أي من عهد الدولة البابلية الحديثة» سطوعاً فحياة هذه العائلة التي التقينا معها أكثر من مرة

معروفة على امتداد أربعة أجيال من نهاية القرن السابع إلى بداية القرن الخامس قبل الميلاد. وحمل اسم عائلة إكيبي عدد كبير من الأشخاص الذين سكنوا في بابل وأوروك. فهم وجدوا منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ويبدو أنهم كانوا سابقاً عشيرة كلدانية وقبيل نهاية القرن السابع قبل الميلاد لم يكونوا بعد موجودين، والناس الذين باسم عائلة إكيبي ينتمون إلى الطبقات المختلفة للمجتمع نفسه وهكذا دخل الاكيبيون الأوروكيون في قوام الطبقة الأوليجاركية الحاكمة وشول ابن نابو - زير - أوكين نجل إكيبي مؤسس أسرة إكيبي التي تهمنا كان إنساناً متواضعاً ساكناً قرية باخيرت حول بابل.

وبالمناسبة يقال أن اسم إكيبي حمله العديد من سكان هذه القرية الذين لم يكونوا من أقرباء شول. وبدأ شول مهنته كمرابٍ قروي في تلك الأيام عندما سقطت آشور واندفع الجيش البابلي إلى الغرب بدأ عهد الازدهار البابلي. وكان شول واحداً من أولئك الذين سعوا للاستفادة من الآفاق التفاؤلية «الواعدة» المفتوحة وجمع ثروته الصغيرة على حساب مواطنيه من القرية نفسها وفي نحو عام ٥٩٠ ق.م نزح إلى بابل حيث انغمس إلى رأسه في عمليات المراباة ومات شول في عام ٥٨٢ ق.م تاركاً لأولادة تركة عظيمة إلى حد ما وتعطشه الذي لا يرتوي للأرباح.

وانفصل نابو - آخي - إدين الابن الأكبر لشول حالاً بعد ذلك عن أخوته الصغار لكي لا يرتبطوا معه بالأعمال وسار على خطا أبيه وسرعان ما تحقق من أن طرق والده في إدارة الأعمال لا تختلف عن الأصول وبالكاد تسمح له بالارتقاء إلى أعلى من مستوى رجال الأعمال المتوسطي الحال الذين من أمثاله.

ووجد نابو - آخي - إدين طريقاً آخر للثروة. وفي بداية السبعينيات من القرن نزح إلى مدينة أوبيس حيث وجد مجيراً بشخص الرجل الغني وصاحب النفوذ الوجيه نرجال - شارو - اوتسور ابن بعل - شوم - إشكون الذي التقينا معه سابقاً فقد قاد المتحدر من الكلدانيين نرجال - شارو - اوتسور وهو برتبة جنرال «راب - ماجا Pas - Maga» الأفواج البابلية عند اقتحام أورشليم في عام ٥٨٦ ق.م وبعد ذلك شغل منصب نائب «عامل» لإقليم بيت - سين - ماغير إلى الشمال من بابل ووظيفة وكيل ملكي مفوض في سيبار.

وتزوج نرجال - شارو - اوتسور ابنة الملك نبوخذ نصر الثاني واحتل المكان الثاني بالرتبة بين «أمراء بلاد أكاد» وامتلك أراضي واسعة وعدداً عظيماً من العبيد وقطعاناً هائلة من الغنم وكان على علاقات وثيقة مع الدوائر الحاكمة في سيبار ومع معبدها إبابار الذي هو من أكبر المعابد في البلاد.[15]

وكسب نابو - آخي - إدين أولاً ثقة عبيد ونظار قرى الوجيه بحيلة مقدماً لهم الخدمات في الأعمال ثم انتبه إليه نرجال - شارو - اوتسور نفسه وجعله القائم بأعماله وبهذه الصفة عاد نابو - آخي - إدين في نهاية الستينيات من القرن إلى بابل وهنا قام باسم وليه بعملية واحدة تضارع أكبر الصفقات.

ففي عهد الملك نبوخذ نصر سكن في بابل رجل شاب اسمه نابو - أبلو - إدين ابن بالات نجل كاباتشيك وأحب الحياة بجميع مفاتنها وبذر النقود بغير حساب وبغض النظر عن الثروة التي تركها الأب بدأ يتعاطى الدين فرهن وأعاد رهن ممتلكاته وتمتع نابو - أبلو - إدين بموهبة جاذبية نادرة لم يستطع أن يصمد أمامها حتى الأغنياء البابليين المحنكين واعتمدوا على كمبيالاته وأقرضوه الأموال وهكذا استمر لأكثر من ١٥ عاماً. ولكن دوماً عاجلاً أو آجلاً تأتي النهاية.

وأخيراً اخترع نابو - أبلو - إدين المتورط بالديون والذي أصبح رجلاً ناضجاً طريقة مبتكرة للتخلص من المداينين - هي الطريقة التي بعد ٢٤ قرناً من الزمان لقن فيها صيسوى سويتس التاجر الكبير في مسرحية أ. ن اوستروفسكي «تشبه بأهله» حيث لعب دور صيسوى آنذاك نابو - آخي - إدين ودور المتزلف نرجال - شار - اوتسور.

ففي نهاية عام ٥٦١ ق.م أعلن نابو - أبلو - إدين إفلاسه ووضعت أملاكه في المزاد العلني. واشتراها نابو - آخي - أدين باسم نرجال - شارو - اوتسور وأخذ نابو - آخي - إدين لنفسه أيضاً بصفته وكيل تصفية الحسابات من دائني نابو - أبلو - إدين فدفع للذين احتفظ منهم بممتلكات المفلس المرهونة بالكامل أما الآخرون الذين لم يكن في أيديهم إلا الكمبيالات فقط فاقترح عليهم اختيار إما نصف المبلغ المذكور في الكمبيالات أو لا شيء إطلاقاً، واستمر النهب في وضح النهار لعدة سنوات.

وأثناء ذلك استولى نرجال - شارو - اوتسور في شهر آب عام ٥٦٠ ق.م على العرش الملكي في بابل وولول الدائنون الغشاشون ولم يتكدر أتباعه الجدد إلى حدٍ ما من أخلاقه «مزاجه».

وفي النتيجة صار الملك الجديد مالكاً لعدة بيوت فاخرة في العاصمة كانت تعود سابقاً للمفلس، واشتهر وكيله نابو - آخي - إدين في كل دوائر الأعمال في بابل وافتتح مصرف إكيبي الوقور ونابو - أبلو - إدين مفلس منحوس. ولكن لماذا هو منحوس؟

لأن القارئ عبثاً يتوقع أن يراه في جب الديون يعوض بعرق جبينه عن الذنوب التي فعلها في حياته الطائشة. لكن نابو - أبلو - إدين عاش في بابل في زمن البلبلة ولم يفلس فقط بل على العكس امتلك بيوتاً جديدة وعبيداً واستمر يعيش بطريقة حياته السابقة وتصادق مع المحسن نابو - آخي - إدين.[16]

وهكذا بحدود السنوات الستينيات - الخمسينيات من القرن «السادس قبل الميلاد». بزغ في قبة فلك العمل البابلية نجم جديد هو نابو - آخي - إدين الأول العظيم ابن شول نجل إكيبي ومنذ ذلك الوقت عرفت بداية بيت إكيبي المشهور

واغتنى نابو - آخي - إدين بشدة واشترى العقارات والبيوت والعبيد بالجملة وقام بعمليات مالية كبيرة وجاءت العواصف السياسية التي زعزعت بابل في تلك السنوات كلها لصالحه ولم تخنه غريزة العمل في هذا الأمر. واستعاد نابو - آخي - إدين أيضاً في سنوات حكم نرجال - شارو - اوتسور «٥٦٠-٥٥٦ ق.م» علاقات العمل مع نابو - تسابيت - كاتي ساقي ابن الملك بعل - شارو - اوتسور «بيلشاصر».[17]

والحقيقة لما كان بيلشاصر غير مشهور وحتى لم يحلم بالسلطة فلما وصل إليها بعد الانقلاب في عام ٥٥٦ ق.م وصار اعتباراً من عام ٥٥٣ ق.م مشاركاً في الحكم للملك نابونيد لم ينسَ الخدمات التي أداها نابو - آخي - إدين وثبت الأخير «أي نابو» في دوره كصيرفي الملك وشغل أيضاً منصب القاضي الملكي.

وفي هذه السنوات دخل نابو - آخي - إدين أيضاً في اتحاد مع من هو مثله متصرفاً بالأموال تماماً وهو إدين - مردوك ابن اكيشي نجل نور - سين الذي دار الحديث عنه سابقاً.

وحمل كودورو جد إدين - مردوك أيضاً اسم إكيبي وهو متحدر من قرية باخيرت نفسها مثل شول والد - نابو - آخي - إدين الذي كان على معرفة شخصية به أيضاً بدأ نشاطه مثل شول شخصاً قروياً صارماً قاسياً يضطهد الآخرين ويغتني على حسابهم.

وجاء كودورو في عام ٥٩٩-٥٩٨ ق.م إلى بابل وتوفي نحو عام ٥٩٣ ق.م وبدا ابنه إكيشي سيئ الحظ ومات معدوماً ولم يساعده حتى تبديل اسمه الأكادي إكيبي باسم بابلي صرف هو نور - سين[18]. وكان إدين - مردوك الابن الأصغر لاكيشي ولذلك كان عليه أن يشق طريقه في الحياة بنفسه. واقتنص حظه في البنت الخلوقة اينا - ايساجيله - رامات ابنه زيري نجل ناباي التي صارت زوجته نحو عام ٥٧٢ ق.م.

وحصلت إينا - ايساجيله - رامات على جهاز «صداق» معتبر فكان عندها المال والعبيد وتمتعت بشكل رئيس بصفات رجال الأعمال وبمساعدتها كسب إدين - مردوك بسرعة ثروة بعمليات المراباة والمضاربة بالثوم والتمر والشعير والسمسم والصوف والماشية وافتتح في الخمسينيات من القرن مصرفاً.

وهكذا لما تزوجت ابنته نوبتا بـ إيتي - مردوك - بالات الابن الأكبر لنابو - آخي - إدين ارتبطت ثروتان ضخمتان وبعد موت إدين - مردوك لاحقاً في عام ٥٢٥ ق.م صار ورثته الوحيدين أحفاده: مردوك - ناصر - أبلو ونابو - آخي - بوليت ونرجال اوشيزيب أبناء إدين - مردوك - بالات ونوبتا الجيل الرابع لعائلة إكيبي.

وتوفي نابو - آخي - إدين ابن شول نجل إكيبي في خريف عام ٥٤٣ ق.م مسلماً إدارة العائلة إلى إتي - مردوك - بالات «إدين» الذي في عهده بلغ بيت إكيبي قمة ازدهاره وكانت ملكية الأرض أساساً لثروته التي يعود إليها لا اقل من ٤٨ عقاراً «ضيعة» وعلاوة على ذلك كان عند إكيبي نحو ٥٩ بيتاً سكنياً في بابل وبارسيب وكيش وغيرها من المدن ونحو ٣٠٠ عبد ورأسمال نقدي عظيم استخدم في العمليات المصرفية والمراباة.

وفي النهاية كان إتي - مردوك - بالات العراف[19] مستقبلاً مرتبطاً مع المعابد وسيحين لنا أكثر من مرة أن نتحدث عن مستقبل عائلة إكيبي وجملة وقائع في تاريخ حياتها أدناه.

وخلافاً لعائلة إكيبي فضل إتي - مردوك الثروة النقدية بينما لعبت الأرض والبيوت والعبيد في قوام ثروته دوراً متواضعاً وعندما تزوجت ابنته أعطاها في الجهاز ٢٤ مناً «١٢ كغ» من الفضة وعقاراً «ضيعة» اشتراه خصيصاً لها وأعطى صهره مالاً بدلاً من العبيد المخصصين لها ولم يكن عنده عبيد وعقارات زائدة وإنما أموال نقدية. وقدمت المراباة والمضاربة والمصرف الإيرادات الأساسية لـ إدين - مردوك.

ويشهد مثال إدين مردوك على التطور العالي للتداول النقدي في بابل وعلى أن الثروة النقدية تنافست في أعين الشعب مع الثروة المكونة من الأرض والبيوت والعبيد وهذا بدوره يعبر عن استقرار حالة الأعمال في السوق حيث يمكن في تلك الظروف فقط اعتبار الثروة النقدية مضمونة من هبوط القيمة نتيجة للتقلبات الحادة في سعر الفضة ومن المصادرة.

وفي الرواية عن عائلة إكيبي وعن إدين - مردوك لم أذكر «يعني المؤلف» المصارف في حديثي فبابل كانت في عهد البلبلة وطن المصارف مثلما كانت سومر في الألف الثالثة قبل الميلاد وطن المحاسبة، وولدت المصارف نتيجة لتطور رأس المال التسليفي - الربوي والتجاري وكذلك التداول النقدي، ودعت إليها الحاجة للحياة بالقروض التي أصبحت حياة العمل من دونها غير ممكنة في بابل في القرن السادس قبل الميلاد.

فالقروض الربوية ما استطاعت تلبية حاجة رجال الأعمال للنقد عندئذٍ ظهرت الإيداعات «بالبابلية: هارانا Harrana أي سبيل» وهذا يعني قرضاً مسلماً للتجارة بالقوافل وأنتج التطبيق العملي البابلي نظامين من الإيداعات يأخذ بأحدهما رجل الأعمال رأس المال نقداً أو بضاعة من رجل أعمال آخر ويدخله هذا في التداول ولأجل ذلك يدفع لصاحب رأس المال حصة محددة من الأرباح تكون النصف أو الثلث عادة أما في النظام الآخر فيتشكل الإيداع بواسطة جمع أسهم «حصص» من رجل أو عدة رجال أعمال وكل واحد منهم إما لا يملك رأس المال الكافي لإدارة العمل بمفرده أو لا يريد أن يقوم بالعملية لوحده وفي هذه الحالة توزع الأرباح وفقاً لمقدار الأسهم «الحصص» وفي حالة تساوي الأسهم وعادة لا توجد مساواة بين الشركاء حيث يكون أحدهم كقاعدة أغنى وأقوى من شركائه الذين لا يستطيعون أن يتصرفوا من دون مساعدته ولهذا يتعهدون بإدارة العملية عملياً ويؤدوا للشريك حصته من الأرباح.

ويعتبر الإيداع أيضاً عملية مصرفية جنينية وعلى الأقل نمت المصارف الإيطالية في القرون الوسطى على عمليات من نوع الإيداع كما كانت في بابل، وكانت الخطوة التالية هي الانتقال إلى أسلوب تسليم الودائع بالتسليف. مقايضة بين المودعين ودفع

الشيكات التي يقدمها المودعون وكانت هذه العمليات مصرفية بحته وليست عمليات ربوية مارستها مصارف إكيبي - وإدين - مردوك وكثير غيرها من المصارف بصورة دائمة وصارت مثل هذه العمليات في الحياة اليومية البابلية في القرن السادس قبل الميلاد ظاهرة عادية.

وبفضل الودائع حصل صاحب المصرف على إمكانية التصرف حسب هواه بأموال المودعين ويدخلها في التداول وتأتيه في المتوسط بفائدة ٢٠% سنوياً «هكذا كان السعر المتوسط لفائدة التسليف» وكانت نسبة فائدة المصرف التي يتلقاها المودع أقل من فائدة التسليف بنحو ٧% حيث شكلت دخلاً مباشراً لصاحب المصرف[20] وعلاوة على ذلك حصل صاحب المصرف على إمكانية الإشراف على ممتلكات المودعين وامتلك السلطة عليها. وهذا بدوره حمل له أرباحاً وإيرادات مختلفة.

إلا أنه يجب أن لا نبالغ في تقدير مستوى التداول النقدي في بابل فهنا كما في الحرفة لم يخرج المجتمع البابلي عن إطار العصور القديمة وبخاصة كلما تتبعنا هذا بدقة في مثال المصارف البابلية.

وبقي الديتو «Ditto»[أ] المصرفي في بابل على صلة لا تنفصم مع المرابـاة والتجـارة ورجـال الأعمـال والزراعـة وامـتلاك البيـوت والعبيـد وغيرهـا مـن أشـكال النشـاطات العمليـة ولـم يكـن إكيبـي ولا إديـن - مـردوك ولا زملاؤهمـا مصـرفيين - محترفين ولم يظنوا إنهم مصرفيون بابليون حتى لم يكن عندهم الاصطلاح المناسب لتسمية هذه المهنة، وبالنسبة إليهم كانت العمليات المصرفية واحدة من الأشكال الكثيرة للحصول على الإيرادات وزد على ذلك ليست أهمها.

وفي بابل لم ينفصل العمل المصرفي بعد إلى مهنة مستقلة وفي ذلك يكمن الاختلاف الجذري للمصارف البابلية ليس فقط عن المصارف المعاصرة وإنما عن مصارف العصور الوسطى الإيطالية والجنوب ألمانية مثلاً.

وبالنسبة إلى إكيبي - وإدين - مردوك كان العمل المصرفي ملحقاً للأعمال الأخرى بينما على العكس بالنسبة لمصارف باردي وبيروتشي وميديتشي وفوغيروف أو فيليزيروف كانت مهنة أساسية والأعمال الأخرى مكملة لها.

والاقتصاد البابلي عامة الزراعي والحرفي والتجاري والتداول النقدي كان على مستوى تطور عالم العصور القديمة أما البلدان الواقعة خارج حدود الشرق القديم بما فيها اليونان وروما وصلت إلى هذا المستوى فقط بعد عدة قرون من ذلك

أ- Ditto = الشي نفسه: تعبير يستخدم في الحسابات والقوائم اجتناباً للتكرار، نسخة طبق الأصل = المترجم.

وتـأتي فقط مصـر ولحـدٍ مـا بعض المـدن الفينيقيـة والسـورية فـي كـل العـالم علـى مستوى واحد مع بابل.

obeikandl.com